الجـــــمـــل

• مــحــمــد نفّــاع

قصة قصيرة

الموضع كما كان: فيه رائحةُ الوحشة والرهبة، في فسحة من الدرب الحقليّ، قبالةَ الشمس في شروقها المبكّر. كأنّ خطى السنوات الثلاثين أخطأت المكانَ، فقفزتْ عنه متجنِّبةً حومةَ الشوك؛ أو كأنّ مرور الزمن لم ينطبق على هذه البقعة المتروكة، وكلّ ما طرأ من تغيُّرٍ بدا عابرًا في طريقه إلى الزوال.

أَهْتصر نظري علّه يحطّ على شيء من تلك الأيام، فيبرقط الماضي بانفعالٍ ويهوي كروح تجاهد لتَخْرج من الوحل والنار. بطنُ الوادي، الذي كَرْكَعَ فيه الرصاصُ في تلك الأيام، ظلّ عابسًا واجمًا متسائلاً عمّا حدث في ذلك اليوم:

قبل أن يَبزغ الفجرُ رحتُ أُنهض الجملَ النائمَ في صحن الدار، واسمُه «غدير.» ألفيتُه يجترّ كعادته، فاضطَرّني إلى الانتظار لحظةً. أفاق ذَكَرُ الحمام مبرقمًا، وصاح ديكٌ بأعلى صوته وبشكل ممطوط، وجَرَّبَ حظَّه فروجٌ بصوتٍ أبحّ متردّدٍ كالغلام المسترْجِل، فأسرعتُ في مهمتي:

ـ حوِّلْ غدير.. إيدك..

وكأنّ الحيوان فهم من ذلك معنًى آخر. فها هو يشهل رأسَه قليلاً بتثاقل ويحرّكه إلى الجانبين، ويُسقط مشفرَه ويتذبذب، ومن عينيه يشعّ بريقٌ رائقٌ في الفجر اليماميّ، ويمدّ عنقَه حتى يلامس مشفرُه نحري، وأنفاسُه الرتيبة الصامتة تَلْفح بدفئها صدري في تموُّجات لطيفة تروح وتجيء.

تكدَّرتُ من ضيق الوقت، وهذا المخلوقُ يأبى النهوضَ قبل أن يتمسّح برأسه على صدري. أهو يشكو من التعب في هذا الموسم، أَمْ يقوّي علاقةَ الزمالة والوداد وهو يتحكّك بدلال؟ تَعْبق رائحةُ الشوك والقشّ، ومشفرُه الناعم المحنيّ يروح ويجيء على ذقني، ونبقى لحظةً بلا حراك، والنسمةُ الفجريةُ تلامس طرتَه الشعرية على شكل الكبوش الهشة للأعشاب البرية. رأيتُ ظلي في بريق عينيه قاتمًا كدغشة الفجر المورِّدِ الأفق.

أخيرًا، نهض بنشاط . تمطّى وانتفض، وتابعْنا الطريقَ التي بدأناها منذ أن بَلَغْنا مبلغَ الرجال ومبلغَ الجمال. سار الرّكبُ، ومن البيوت نبضتْ أضواءٌ خافتةٌ من الطاقات المتعرّجة والنوافذ المفتوحة، حمراءَ باهتةً، وكفُّ ستّنا فاطمة الزهراء (رضي اللهُ عنها) هي النقشُ الوحيدُ على طين البيوت المدهونة بالتراب الأصفر.

للطباش المعلّق في عنق «غدير» رنينٌ رتيبٌ متناسق يصيح طولَ الطريق، والجلاجلُ الصغيرة تضجّ بأصوات حادة رفيعة، وأخفافُه ترنّ في حصى الوادي الرطب البارد وتزيد الطريقَ المكسورَ وضوحًا فيظلّ مطروقًا على مرّ السنين.

لم نكن في رحلة: فنحن ذاهبون في المشوار اليوميّ. وها نحن اليوم قد تَرَكْنا البلدَ والبيتَ والأولادَ والمصفّةَ والمنزولَ، وساحاتِ الأعراس والطابون، وخلايا القمح التي تروح تمتلئ كلَّ موسم، فتظل رائحةُ القمح الجديد تنبعث في البيت أيامًا.

تلوّى أنينُ شبّابة القصب مناديًا من صماصيم القلب على الخلاّن، يتعمشق في الجو ويلامس أهداب الندى الرقاد. والطيرُ تَرْمقنا بأعين حذرة مذعورة، والجملُ يهمّ في مشيته على نغم الناي واللحن الوعريّ المتدفق، ونظرُه مرسَلٌ إلى الخط الأفقيّ. و«غدير» جملٌ له أصدقاء ومعارف، يخاطب بشرف وأنفة. وعادةً يمسِّد البعضُ على عنقه: «عفارم غدير.. حَوِّلْ غدير..» حتى عندما يهيج، وتصبح عينُه محمرَّةً كالجمر، ويركض بكلِّ ما أوتي من قوة وبصورة فظّة، كان يعامَلُ بلطف، وتطوِّقه مجموعةٌ من الرجال حتى تَقْبض عليه ولا تؤذيه.

في ذلك اليوم كان كلُّ شيء كالمعتاد. ومن العين والأرض الحوارية الرخوة، بَدَتْ لنا الأرض. وكلّما أوغلنا في الطريق اتّسع السهلُ الذي يروح يَخْفق مع مشيتنا. كان الناس يملأون السهلَ المنقّط بأشجار السدر المخضرّة، ومع النسمات الآتية من السهل الفسيح تجمعتْ حروفٌ مبعثرةٌ لتقول: «حَوِّلْ غدير..» هكذا خُيِّل إليّ يومَها.

• محمد نفاع

اشرأبّ الناسُ ونظروا إلينا دون أن يتركوا عملهم، ورشقتنا الأرضُ بصخب العمل ورائحة العرق، وغبارُ الحصاد يعسفر كالجدائل، وغناءُ الدرّاسين يتمايل في الجو مزيجًا من الألحان والأصوات المختلفة.

اسرحي وامرحي أيتها الغزالة. الثمي سنابلَ السهل الذهبيةَ الحانيةَ المائجة، فها هي تترنح من نشوة الملامسة، تهدهدها النسماتُ المبكّرةُ الطريةُ العبقةُ كأم تتنشّتش وليدَها وهو يكاغيها وعلى وجهه الحليبيّ بسمةٌ طافحةٌ هشّة.

ظلّ روش العمل يداعب سمعَنا حتى اختلطنا مع هذا الجمع من الناس والدوابّ، وكلٌّ في عمله، في سباقٍ صاخبٍ مع الأرض والريح الغربية المواتية لذرو القمح، والحرّ اللافح الموافق لدرس الغلال المكوّمة على البيادر، حتى غابت معالمُ البيدر تمامًا تحت ثقل الموسم. وكلّما جرّتني الذكرى إلى اللحظات التي تبعث كلَّ ذلك، ازداد بطنُ الوادي تجهُّمًا وسكينةً ثقيلة، ويَغْرق الموضعُ في وحشة ورهبة وأشياء أخرى.

في ذلك اليوم كانت ظلالُ السور لا تزال متطاولةً، والشمسُ في بدء صعودها، والنهارُ يتقدم بوهن، وأيدي الحصّادين في عنفوانِ قوتِها تلوّح وتهوي على السنابل، والمناجلُ لم تحمرّ بما فيه الكفاية من وهج العمل، وهي تومض ومضاتٍ متسارعةً وتقضم السيقانَ بلحن رتيب، وغمارُ القمح متلقّحةٌ متراصةٌ في صفوف وطوابير منتظمة تتجه برؤوسها إلى الشرق، والأرضُ المحصودةُ تبدو فرحةً منشرحةً وقد تعرّت هكذا بدون خجل، وانفجم السهلُ الحنطيّ الممتدّ هنا وهناك في تفسّخات وتعرّجات حَصَدَت الحدودَ بين القطع وهيّأتِ الطرقَ الحقليةَ. باختصار، كنّا نشردق السهل من كلّ جهة، وأجراسُ الجمال تدندن بلا نهاية وهي تَنْقل الغلالَ إلى البيادر بطاعة ونشاط.

وفي لحظة واحدة، تشوّه الأفقُ على الربوة الواسعة على الكتف الشرقيّ للسهل، ونَبتتْ ظلال متحركة تحبو هنا وهناك، وصفٌّ من الرجال كأسنانِ الغولة الفُرقِ انغرز هناك، وخفَّ العملُ دون أن يتوقف، ورَشَقَ رشّاشٌ رشقاتٍ مرعبةً متسارعة. وفي رمشة عين أصيب السهلُ بسكتة قلبية: تجمّد كل شيء وتوقف، وغاصت نظراتُ الفلاحين في الربوة اللعينة، وشاطت في الأرجاء شُهبُ النار ولعلعةُ الرصاص، واختنق غبارُ الحصاد المتلوّي كالجدائل الجميلة في دخان الحرائق، وطقطق القمحُ المحروق، ونَفشت الأرضُ القشَّ المرمّد المشتعل، وزغردت النيرانُ وهي تأكل الزرعَ الأصفرَ الحاني، وزفرتْ بشدة وهي تتقدم وتعرّج هنا وهناك وقد أخذتْ على عاتقها أن تسوّدَ كلَّ شيء بإتقان، والألسنةُ الناريةُ تتطاير على جمام الأرض مقطّعةً تشْهب وتومِض في كتل الدخان المزرقّ الكثيف. والتقى دخانُ الحرائق الكثيرة المبعثرة في جيش واحد، وخَيَّم ظلامٌ موحشٌ ضاج في وضح النهار، وتلاطم وهجُ الشمس بوهج النار.

ومع الكتل الدخانية وألسنةِ النار وطرطقةِ البارود واللغط الغريب البعيد، تردَّدَ اسمُ «الهاغانا،» والسهلُ يئنّ أنينًا متدفقًا. وتعربشت النارُ على شجر السدر، فأَطْرق هذا للحظة، ثم راح ينوح وهو يشعط أوراقه الخضراءَ تنفلت محترقةً ـ وهي تموت بضجيج وصخب. وتحرّكَ الناسُ والدوابُّ والشجرُ والسهلُ، وظلوا في حركات دائرية متواصلة كالرقصات حول جثة شهيد.

كان «غدير» يبعبع بحدّة وينظر إلى مصادر النار بهلع. شَدَدْتُ المقود في يدي بعد أن كان قلقًا لا يهدأ. وسمعتُ صوتًا ممقوتًا يطرش طرشًا بشعًا، يَخْبط خبطًا غيرَ مألوف، وشيئًا ما يتكسّر بتمزُّق ويتمزّق بتكسُّر. اهتزّ المقودُ وانجرد في يدي وانفلت بعنف. ودار الجملُ على نفسه وارتجّ وانتفض لا كمن يوشك أن ينهض، وتوجَّعَ مكشّرًا عن أسنانه الطويلة الصفراء وقد عَلِقتْ بينها حشائشُ مخضرّة معصورةٌ، وتذبذبَ مشفرُه بقوة، وماجت الشعراتُ الخفيفةُ فوق خشمه كأنّه يستجدي. وفي الحال انبثق من خدِّه دمٌ غزيرٌ أغرقَ الوبرَ الناعمَ القصيرَ، وراح يَشْغَر في سيول ودروب متعرجة ويَرْشق رؤوسَ السنابل التي لم تكن تألف ذلك.

تشوّهَ وجهُ غدير، ومن فمه سال زبدٌ أحمرُ على الأرض بشكلٍ مائل. كان الدمُ حارًا على وجهي ويدي. لم أصرخ، ولم أُطلق نخوةَ فداء الجمل الذي رَشَقَ دمَه عليّ وعلى الأرض كمن يَطْلب الثأر. سخن حلقي ووقفتْ فيه غصةٌ مُحْرِقة، والجملُ يبعبع بحيرة وينظر إليّ نظراتٍ متسائلةً مندهشة، ولم يعرف لماذا يوشك أن يقع بالرغم عنه. كنّا وحيديْن في هذا الركن من الأرض. مشى الجمل خطواتٍ إلى هذه الفسحة، إلى هذا الموضع بالذات، بلا مقود، تاركًا إياي على بعد خطوتين، ولكنّني عرفتُ البعدَ السحيقَ الأزليَّ في هذه المسافة القصيرة. جعر، ونادى، وتألّم،

وودَّعَ الكونَ حوله بنظرات واهنة ناطقة، ثم جَحظتْ عيناه ورغرغتْ حولهما دموعٌ مدمّاة، وهال خابطًا متكوِّمًا متمدِّدًا بشكل هائل. التوى القمح والعشبُ قربه، وظلت بعضُ السنابل تَنْبت حوله كالسياج، وبقيتْ أنفاسُه تتوالى بصورة خافتة: كان فيها عِرْقٌ من البرودة وهي تحطّ على وجهي. ووَصَلَ بين وجهيْنا خيطٌ رجراجٌ بالدم النازف، ورحنا في لحظةٍ صمتٍ وددتُ لو تطول كما في السابق. لكنّ الجمل أطلق النَّفَسَ الأخيرَ بصعوبة، ومن خلال عينيه المغرورقتيْن بالدم وقفتْ نظرتُه في عيني، ولم أر صورتي في البريق: كان فيها بريقٌ من نوع آخر، أبعد ما يكون عن الشفافية.

خيّم ركود واجم، وحرّكت الريحُ طرّتَه بابتذال. وفي الفجاج المحروق الأغبش أصوات مركبة كالنداء المتواصل المستغيث. وراح النداء يغوص في بطن الأرض، مكتومًا محاصرًا متلاطمًا.

لم أقف على ما حدث إلاّ بعد ذلك بأيام. ولكنْ ها إنّ الدهن قد سال من الجمل وَسحَّ باستمرار، وهو يذوب في وهج شمس حزيران ليملأ هذا الموضع. وها إنّ سنامه يتضاءل ويَفْرغ أكثرَ فأكثرَ ليصبح رخوًا.

شرقت الأرضُ بالدهن المعرَّق بالدم الخاثر اللزج وبالعفن. وراحت أسرابُ الذباب الأزرق تطنّ بوقاحة، تحوم وتتطاير من مكان إلى مكان في هذه الجثة المديدة المكومة التي برزتْ فيها خروقٌ رخوةٌ، وكانت أنياعُه قد تفسّختْ، وأخذ وبرُه يتساقط متعفِّنًا ملطَّخًا ملتصقًا بالأرض، وسَقط مشفرُه بلا حول ولا قوة. وصار جلده فضفاضًا متَّسعًا مجعدًا، وظلّ ينتهي حتى لم يبق منه إلا العظامُ المعروقةُ وعليها بقايا اللحم الأسود.

◆ ◆ ◆

اليوم انقطع مشوارُنا اليوميّ. قَطَعَه الحريقُ، طوال ثلاثين سنة.

صارت الأرض بعيدةً غريبةً مجرَّحةً يدبّ فيها البلى. وصار هذا الموضع موحشًا، له رهبةٌ.

وتمرجحتْ ذكرياتُ الماضي وأشياؤه بعنف، وبرقطتْ كمن يجاهد ليخرج من الحريق والوحل. وأخذ المكانُ يردِّد النداءَ المتواصلَ المكبوتَ الذي غار في الأرض، وهو يجاهد لينمو وينبتَ مع بداية الموسم الجديد.

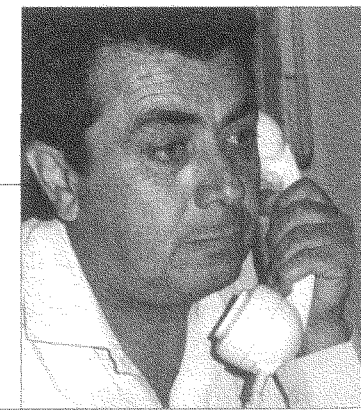

محمد نفّاع (بيت جَن ـ ١٩٣٩):

شغل منصب سكرتير الشبيبة الشيوعية في البلاد، ثم انتخب عُضوًا للكنيست. وهو اليوم السكرتير العام للحزب الشيوعيّ. لكنّ ذلك لم يَحُلْ دون نشاطه الأدبيّ، فأصدر عددًا من المجموعات القصصية والروائية.